دون أن يقاطعه أحد، وكأنه سحر قضاته ببيانه، وما من ريب في أن غوركي نفسه هو الذي طاب له أن يلقي هذه الخطبة، فلم يجد بداً من إرغام القضاة على السكوت واتخاذ «بافل» بوقاً له ينفخ فيه أفكاره الخاصة.

والشخصيات عند الواقعيين الاشتراكيين غالباً ما تكون شريرة تماماً أو خيرة تماماً، سوداء قاتمة، أو بيضاء ناصعة. وهذا ناتج عن النظرة المثالية المطلقة التي تدفع الكاتب بالضرورة إلى إبراز جانب واحد فحسب من جوانب الشخصية الإنسانية. وهم بهذا يعودون بالأدب إلى الكلاسيكية أو إلى «شكسبير» الذي وقع في هذا الخطأ في كثير من مسرحياته. إن «ياجو» في مسرحية «عطيل» شيطان كبير، لا يتورع عن أن يحيك تلك المكيدة الشهيرة للقائد «عطيل» ويزرع في نفسه ا لشك القاتل في زوجته البرئية «ديدمونة» التي تضاهي الملائكة بنقاء طويتها. وكذلك الأمر بالنسبة إلى ابنة «الملك لير» العاقة.

ولا ريب في أن النقد الحديث يرفض مثل هذا التعميم أو هذه المثالية المطلقة التي تبهت الشخصية وتفقدها طابعها البشري. ولهذا فإننا لا نتردد في رفض تقسيم الشخصيات في رواية «الأم» إلى شخصيات خيرة، تناضل نضالاً مستميتاً من أجل خير البشر، وشخصيات شريرة لا هم لها سوى ابتزاز البشر المستضعفين وسحقهم. إن الدراسات الحديثة في علم النفس لا يمكن أن تقبل مثل هذا التقسيم الجائر، لأن الإنسان ليس ملاكاً وليس شيطاناً، إنه مركب من عناصر ودوافع خيرة وأخرى شريرة.. إنه معقد في أغوار نفسيته، وليس بسيطاً إلى درجة إمكان تعريفه بمثل هذه الأحكام العامة التي تجمده.

والاقتصار على تقديم جانب واحد مثالي من الشخصية يسوق الكاتب إلى خطأ فادح في رسم النماذج البشرية، وهو التغاضي عن رسم الملامح الفردية، سواء كانت هذه الملامح مادية جسمية أم نفسية فكرية أم روحية.

والملاحظ أن غوركي نجح في تصوير الملامح الفردية المادية لشخصياته إلى حد بعيد، وخاصة شخصية الأم بتلك القامة الطويلة المنحنية إلى الأمام، وذلك الوجه «العريض البيضوي الشكل الذي جعدته السنون وحفرت فيه غضوناً